بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 545 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة الإنسان

التاريخ:**24\10\2023** م كتبه: عبدالله ضيف الستري

ما زال الكلام في قوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبيلاً﴾، وقارنا بين هذه الآية السابعة عشر والآية الخامسة، في كون الحديث في كلا الآيتين عمّا أعدّه الله سبحانه وتعالى للأبرار، فكان لا بد من الوقوف على هذه الاختلافات في التعبير.

وقفنا عند بعضها، وبقي الاختلاف في التعبير من ناحية نوعية الفعل والتعدية، ففي هذه الآية استعمل الفعل الذي مادته السقي ﴿وَيُسْقَوْنَ فيها﴾ وعدّاه إلى الكأس من دون توسط حرف جر، بينما في الآية الخامسة استعمل الفعل الذي مادته الشرب وعداه إلى الكأس بواسطة حرف الجر، قال: ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ -مع قطع النظر أن أحدهما بني للمعدوم بني للمجهول فهذا أجبنا عنه، فالكلام من ناحية مادة الفعل، في أحدهما هو الشرب وفي الآخر هو السقي، وفي أحدهما عُدّي بنفسه إلى الكأس وفي الآخر عُدّي إلى الكأس بواسطة حرف في الجر- فهل هذا مجرد تفنن في العبارة كما هو ديدن في كثير من البحوث اللغوية والأدبية؟ إذ يقول إذا حشره أحد في زاوية: هذا ينشأ من التفنن في العبارة لأجل عدم ملل السامع. أي تغير الأسلوب حتى لا يمل، كالخطيب تارة يستعمل في كلامه وتيرة منخفضة وأخرى متوسطة ثالثة مرتفعة؛ كي لا يحصل سأم وملل للسامعين. فهنا يغير في المادة لعدم حصول ذلك.

كما هو الحال في باب الالتفات ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيْمِ﴾، فـ ﴿بسم الله﴾ يعني غائب، اسم الظاهر بمثابة الضمير ﴿الرحمن﴾ غائب، ﴿الرحيم﴾ غائب، ﴿الحمدُ للهِ﴾ غائب، ﴿مَالِكِ﴾ يعني هو، ثم مباشرة ﴿إيَاكَ﴾ صار الضمير ضمير المخاطبة، غير الأسلوب، حتى هذا التفنن في التعبير والانتقال من الغائب إلى المخاطب وما شابه ذلك من التعابير لأجل أن السامع لا يسأم من وتيرة واحدة ومن أسلوب واحد.

هذا وإن كنا نقبله في الجملة، لكن في كلام ربّ العالمين سبحانه وتعالى الأمر ليس كذلك، مضافاً إلى هذه النكتة العامة التي يذكرها مثل السكاكي أن التغير في الأسلوب لأجل أن لا يبقى الكلام على نمط وأسلوب واحد ويحصل ملل للسامع، فلابد أن نفهم لماذا غير إلى هذا الأسلوب؟ هو كان يستطيع أن يغير إلى أساليب أخرى، فما هي النكتة في ذلك؟ لماذا السقاية تعدّت من دون وساطة حرف جر وبينما الشرب تعدّى بواسطة حرف جر؟

مع قطع النظر عن معنى ﴿من﴾ هنا، هل هي من بيانية، أي ما يشربون منه أو لمجرد التعدية أو لأي معنى آخر؟ فلابد من الوقوف على هذا الفرق، ولا يكفي تلك النكتة العامة. وهذا ما بحثناه في البلاغة بشكل مفصل عند ذلك الذي يسمى عند فطاحل أئمة البيان بشجاعة العربية، كل هذه الأمور تدخل تحت ما يسمى بشجاعة العربية، والآن في الدراسات فيما يرتبط بالألسنيات وبمباحث الأدب يعدّ هذا من أهم المباحث، ما يرتبط بتغيير النظم والأسلوب واختلاف الصور، عندما نسمع نقد للشعراء نسمعهم على هذا الأساس، ما كان القدماء يعبرون عنه بشجاعة العربية.

فلابد إذا من الوقوف عند هذا في جملة من آيات القرآنية، ومن الواضح أنه في الأعم الأغلب مثل هذه النكات إن استفيدت من الأخبار والروايات إنما تستفاد بطريقة غير مباشرة، أنه في الأعم الأغلب الروايات لا تركز على مثل هذه الأمور، وإنما تركز على المضمون النهائي للآية أو للمقطع أو للجملة أو للمفردة، لكن يمكن أن نتصيد من بعض الروايات ما ينفع في مثل هذه المقامات.

لكن في الأعم الأغلب لا بد أن يرجع هذا إلى سليقة بيانية عند المفسر، ومن هنا نلاحظ أن المفسرين تمايزوا فيما بينهم بهذا الجانب، مثل الزمخشري يختلف عن سائر المفسرين سائر المفسرين في هذا الجانب، العلامة الطبرسي رحمه الله بعد أن كتب مجمع البيان هو بنفسه يصرح بأنه عندما كتب مجمع البيان لم يكن تفسير الزمخشري يحضره، فعندما اطلع على تفسير الزمخشري حاك على منواله تفسيراً آخر، وهو جوامع الجامع. فهذا ميدان لتفاوت علماء التفسير.

هذا المطلب لم أجد -رغم كثرة ما تتبعت- أنهم تعرضوا لمثل هذه الفوارق.

هنا في الواقع أن النكتة الأساسية ترتبط بإسناد الفعل، في الآية الخامسة أُسند الفعل للمعلوم، قال: ﴿يَشْرَبُونَ﴾ هو فعل للأبرار، أي البار يقوم بهذا الفعل بنفسه. وفي هذه الآية التي نبحث عنها ﴿يُسْقَوْنَ﴾ هناك من يقوم بهذه العملية. إذا كان الإنسان مقبل على الاستفادة من نعمة شيء، وكان إذا أريد أن يعطى نعمة شيء آخر، في مقام إعطاء النعمة الكريم لا يتوقف يسقون كأساً مهما كان هذا الكأس، فيعطى بتمامه، أما هم إذا أرادوا أن يتنعموا ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾.

فإذاً مرجع هذا التفاوت بالتعدية بواسطة حرف الجر وعدم التعدية يرجع إلى كيفية إسناد الفعل، هل هو مسند للمعلوم أو هو مسند للمجهول؟

هذا ما يمكن أن يستظهر في المقام.

الآية الثامنة عشر: ﴿عَيْناً فيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾

مفردات هذه الآية واضحة سوى كلمة سلسبيل، بعض المفسرين من أئمة اللغة، وهو ابن الأعرابي، ذكر أن كلمة سلسبيل لا وجود لها إلا في القرآن الكريم. فبناء على ذلك هذه الكلمة لا تكون من الكلمات المشتقة، اسم فعل وفاعل ومفعول وما شابه ذلك.

وأثبتها سائر المفسرين، ومادته السين واللام والسين، سلس، زيدت فيها الباء لنوع من التأكيد والمبالغة لكون العرب تزيد في أحرف الكلمات لأجل التأكيد والمبالغة، وهناك شواهد كثيرة في اللغة العربية، والحروف الزائدة في الأعم الأغلب يكون الغرض منها التأكيد والمبالغة، بهذا المعنى أن الباري تبارك وتعالى بعد أن بيّن أن هؤلاء يسقون من شراب مزاجه الزنجبيل، ومن طبع الزنجبيل أنه فيه شيء من الحدة، التي تؤدي إلى نوع من الجمود في الفم وعلى اللسان، في المقابل هذه الحدة السلاسة، فزنجبيل الجنة فيه تلك الآثار التي يحبها العربي ويشتاق إليها، لكنه رفعت عنه هذه الحدة الموجودة فيه، بحيث يجري كالماء الزلال في فم الشارب، فعبرت الآية بالمادة التي تدل على العذوبة والسلاسة، وبالغت فيذلك فزيدت الباء فصارت الكلمة خماسية وهي سلسبيلا.

فإذاً المقصود من كلمة سلسبيل هو هذا المعنى، وكانت المناسبة بينها وبين هذا المعنى هو التعبير في الآية المتقدمة بالزنجبيل، والزنجبيل من خواصه وآثاره هذه الحدة، فبين الباري أن هؤلاء لشدة تنعمهم.

كما أن عرب وغيرهم كانوا يحبون الخمر، فوعدوا في الجنة بأن يعطوا من هذا الشيء الذي يحبونه، لكن خمر الدنيا فيها بعض السلبيات، تلك الآثار التي تتركها من ألم في الرأس ودوخة وطوشة وما شابه ذلك، فجاءت بعض الآيات القرآنية ورفعت هذا الأثر السلبي، فقالت: ﴿لا فيها غَوْلٌ﴾[1] أي هذا الذي يغتال الرؤوس غير موجودة في خمور الجنة، فتشوق العربي أكثر، تشوق المخاطب أكثر.

هنا لما أعطيوا هذه النعمة، عبارة عن كأس من شراب ممزوج بالزنجبيل نصت الآية الأخرى على أن هذا الزنجبيل فيه هذه الخصوصية، أنه يجري بليونة وعذوبة وسلاسة، لا يوجد فيه تلك الحدة. هذا هو معنى السلسبيل، مأخوذ من السلاسة.

لكن اختلاف بين المفسرين في مرجعه، هل هو يرجع إلى الزنجبيل أو هو راجع إلى العين؟ بحيث إنه يريد أن يقول إن هذه العيون تجري بين ساكني الجنة بعذوبة وسلاسة، أما أصل معنى السلسبيل هو ما ذكرناه.

---

[1] الصافات: 47